أحمد أمين معجميًّا

د. عبير الشيخ علي

الملخص

تعنى هذه الدراسة بالفكر المعجمي لدى (الدكتور أحمد أمين)، وقد كشفت عن عقلية منهجية تجمع بين القديم والحديث، وقد بدأت المجامع تتكوّن في مصر والشام، وتوزعت بين متمسك بالقديم بما يحمله من أصالة، ومحافظة على القواعد التي يجب مراعاتها، والالتزام بها، وعدم الخروج عليها، وأحرار يرون في الخروج وعدم الالتزام ضروريًا ؛ ليواكب مسيرة الحياة أو ما يصلح لمواجهة حالتنا.

وتتجلى أهمية هذه الدراسة بأنها تكشف خطورة الانسياق وراء الحداثة وترك الأصل التليد الذي يجب أن يكون استمرارًا لها، غير أن (أحمد أمين) يرى وجوب التوسع في مدلول الكلمات عند الضرورة، ويكون الأمر محصورًا بأصحاب الذوق اللغوي الممتاز ؛ ليستطيعوا به أن يلحظوا إيماء اللفظ ودلالته ومناسبته وجماله.

وفي نظر (أحمد أمين) أن المجمع اللغوي قد أخفق في حل المشكلات التي تتعرض لها اللغة ؛ لسببين:

الأول: إنَّ الأمور سارت في العالم العربي سيْرًا مهوشًا من غير ضابط، فليس هناك اتصال وثيق بين المجامع والهيئات والأفراد، واللغة ملك للعالم العربي كله، ويجب أن تصطلح عليها الأمة العربية جميعها لما بينهم من ضرورة تفاهم.

الآخر: إنَّ هذه المجامع والهيئات اعتقدت أنَّ مهمتها وضع الكلمات الاصطلاحية في العلوم المختلفة، وهي مهمة تنوء المجامع بعملها وليس من طبيعة تكوينها ما يُمكنها من ذلك، والطريقة المثلى أن يكون العمل في يد الاخصائيين، فهم أدرى بالمعاني والمصطلحات المناسبة، أمَّا أنْ تُكلَّفَ لُغويًا وضع مصطلح كيميائي وطبيعي وجيولوجي فضرب من العبث والبطء الذي لا نهاية له.

كان البحث عن المعجمات أول خطوة في طريق التأليف والإبداع عند أحمد أمين، وقد فتح الباب على مصراعيه للبحث والتأليف، فقال: ((بدأت في هذه السنة أجرب حظي في البحث، فاخترت درسًا من الدروس أبحث فيه عن المعاجم اللغوية، وكيف بدأت اللغة العربية، وكيف تكونت لأول مرة... وأخذت في ذلك سنة كاملة كانت بدء تجربتي في البحث)) (١).

وقد جاء عمله هذا بآراء تكاد تكون جديدة في عصره، وهي أن المعجمات التي نستعملها أثرية ؛ لأنها لا تدل علينا، و((أنها ليست معاجمنا، ولم تسر معنا، ولم تمثِّل عصرنا ؛ ولذلك يخرج عليها كتّابنا وشعراؤنا، وإنما كانت معاجم صحيحة للعصر العباسي أو نحوه، أما معاجم كل أمة حية الآن فهي دليل عليها)) (٢). وهذا القول يشعرنا بنظرة أحمد أمين المستقبلية، و((يجمع اللغويون المعاصرون على أن اللغة (كائن حي)، بمعنى: أنها لا تثبت على حال واحدة بل يعرض لها من التغير ما يعرض لأي كائن حي، فهي تولد وتنمو، تصح وتعتل، تشيخ وتهرم، وقد تنقرض أو تموت، واللغة حين توصف هذا الوصف فلارتباطها بحياة المجتمع الذي ينطق بها، ولعلاقتها بالأفراد الذين يتكلمونها، ولا شك في أن هؤلاء تتغير أحوالهم، فيؤثر ذلك في لغتهم، ويجد طريقة إلى الألفاظ والتراكيب التي يعبرون بها عن أغراضهم)) (٣).

ثم يعود أحمد أمين ليظهر رأيًا آخر فيما يتعلق بالمعجم الجاهلي، فإذا استطعنا أن نحصر الكلمات المستعملة في الجاهلية عرفنا ماذا كانوا يعرفون عن الماديات، وماذا كانوا يجهلون، ويضرب لذلك مثلاً كلمة (ملكة أو عاطفة)، فإذا لم نجد هذه الكلمة، يعني: أنهم لم ينتبهوا إلى معناها، فلم يصنعوا لها ألفاظًا، وهذا وأمثاله يحدد لنا مقدار رُقيهم العقلي(٤)،

((فألفاظ اللغة -مثلا- في منتهى السعة والدقة، إذا كان الشيء الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية، وهي قليلة غير دقيقة فيما ليس ذلك، فالإبل هي عماد الحياة البدوية، هي خير مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم، فحياة العرب في الصحراء تكاد تكون مستحيلة لو لا فضل الجمل، من أجل هذا ملئت اللغة العربية بالإبل... فإذا أنت انتقلت من الجمل إلى السفينة رأيت اللغة العربية في غاية القصور)) (٥). فكلها أمثلة منتزعة من نوع معيشتهم، وصور صادقة لحياتهم(٦).

يقول أحمد أمين: إنّه مع الأسف لم يوضع معجم جاهلي يستطيع أن يحصر لنا الكلمات المستعملة في الجاهلية، ويقف متسائلاً: ((وهل نستطيع ذلك))(٧)، ويقف في سبيل ذلك عقبات عدة(٨):

الأولى: ضياع أكثر الشعر والنثر الجاهليين(٩)، ويستدل بقول أبي عمرو بن العلاء: ((ما انتهى إليكم مما قاله العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير)) (١٠)، فإذا لم نجد مفردة قد استعملت في العصر الجاهلي فهذا لا يعني أن المفردة غير موجودة، أو أن العرب لم تعرف هذا اللفظ ولا هذا المعنى، وبذلك ينهدم جزء كبير من مظهر الحياة العقلية(١١)، وهو بهذا يذهب إلى ما ذهب إليه د. طه محسن من أن الأدب الجاهلي لا يمثل اللغة العربية، قال: ((فنحن إذا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذي نجده في المعاجم، حيث نبحث فيها عن لفظ اللغة ما معناه، نريد بها الألفاظ من حيث هي ألفاظ تدل على معانيها تستعمل حقيقة مرة ومجازًا أخرى، وتتطور تطورًا ملائمًا لمقتضيات الحياة التي يحياها أصحاب هذه اللغة))(١٢). ولكن لا يخفى علينا أن هناك كثيرًا من الشواهد تدل على غنى المعجم الجاهلي من خلال ما وصل إلينا من شعر ونثر، وقد كانت سندًا لكثير من المفسرين، فقد استطاع ابن عباس (ت٦٨هـ) صاحب مدرسة في التفسير اللغوي للقرآن الكريم أن يُجيب عن سؤالات لنافع ابن الأزرق(١٣) التي تربو على مئتي سؤال(١٤).

الثانية: ((أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون قبائل، وهذه القبائل تختلف فيما بينها -كثرة وقلة- في اللغة واللهجة))(١٥)، ويستشهد في ذلك للحادثة الشهيرة التي وقعت لأبي هريرة حيث إنه لم يفهم كلمة (السكين) من أنها تعني المُدية، وأن هذه اللغات بدأ توحيدها قبل الإسلام، واستمر هذا العمل في الإسلام، فإذا ما استعملت قبيلة كلمة قد لا تستعملها قبيلة أخرى(١٦)، ((فإذا لا يصح لنا إذا عثرنا على كلمة في شعر شاعر أن نستدل بها على الحياة العقلية للعرب أجمعين)) (١٧)، ونحن لا ننفي ظاهرة تعدد اللغات قبل الإسلام وبقائها بعده ((بل من المؤكد أن عامة العرب يعبّرون بلهجاتهم الخاصة، وتظهر على تعابيرهم صفات لهجاتهم، وخصائص ألحانهم)) (١٨).

الثالثة: ((إنّ كثيرًا من الألفاظ العربية خُلق في العصر الإسلامي)) (١٩)، قال ابن جني: ((إنّ العربي إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته، تصرف وارتجل ما لم يُسبق إليه، فقد حكى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظًا لم يسمعاها ولا سُبقا إليها)) (٢٠).

فثمة ألفاظ تغيرت معانيها في الإسلام، فقد يكون المعنى عامًّا في الجاهلية، وخصص في الإسلام، كالصلاة والحج والبيع والمزارعة وغيرها، بل قد يتغير مدلول اللفظ الواحد في عقل السامع بانتقاله من طور إلى طور في الحضارة(٢١)، ((فما معجم الألفاظ للجاهليين قبل الإسلام ؟ وهَبْ أنك عثرت عليها، فما مدلولها بالدقة عندهم ؟ ذلك مطلب عسير المنال)) (٢٢).

قد يكون في القرآن الكريم غناء عن ذلك، فقد نزل بلغة تاعرب، وفهمه الناس وقت نزوله، فنستطيع عن طريقه أن نتعرف على لغة الجاهليين(٢٣)، ((ولكن ألفاظه وتعبيراته ومعانيه لا تمثل لغة الجاهليين بأكملها ؛ لأنَّ القرآن استعمل ألفاظًا لم يكن يستعملها الجاهليون، وخصص ألفاظًا لمعانٍ لم يكن يخصصها الجاهليون، واستعمل استعارات ومجازات خارجة عن الدائرة التي كان يستعملها الجاهليون، وله أسلوب أخّاذ كان بعيدًا عن أسلوب الجاهليين))(٢٤). قال السيوطي: ((قال ابن خالويه: إنّ لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة، والمنافق اسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية، وقال ابن الإعرابي: لم يُسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق)) (٢٥)، فنحن لا نستطيع بعد ذلك القول إنّ

ألفاظ القرآن ومعانيه تمثل الحياة العقلية في الناحية اللغوية(٢٦).

ولكن مع هذا، وعلى الرغم من كل هذه العقبات ((نرى أن ما يسلم من شعر ومثل صحيحين يدلنا –نوعًا ما– على حياتهم العقلية، كما يدلنا كُم ثوب عُثر عليه على طول الثوب نفسه وسعته على اختلاف في الصعوبة بين الماديات والمعنويات)) (٢٧).

تلك أهم العقبات التي تقف في تأليف معجم جاهلي، ولكن على الرغم من ذلك فإن الباقي يدلنا على غنى معجم اللغة قبيل الإسلام بخاصة فيما يتصل بنوع معيشتهم ((وقد عبر عن ذلك الاستاذ (نولدكه) خير تعبير؛ إذ يقول: إنّا ليملكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم، إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها، وتوحد مناظر بلادهم واطرادها اطرادًا يدعو إلى السآمة والملل، وهذا يتبع حتمًا ضيق دائرة التفكير، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة وضعوا لكل تغير – وإن قل– كلمة تدل عليه)) (٢٨).

وإذا جئنا إلى العصر الإسلامي نجد أن القرآن الكريم قد أثار كوامن الفكر العربي، وكان القرآن الكريم يخاطب العرب مما جرى عليه أهل الفصاحة، فكان طبيعيًّا أن يخفى عليهم بعض الألفاظ ؛ لذلك جاء بيان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لتلك المعاني أمرًا مطلوبًا.

وهكذا بدأت تتبلور فكرة المعجم في أذهان المسلمين، وكان الباعث الأساسي على ذلك هو فهم القرآن الكريم، وقد اكتملت هذه الفكرة ونضجت في العصر العباسي(٢٩)، ففي ((هذا العصر تحولت معاجم اللغة إلى جهة أخرى جديدة على يد الجوهري صاحب الصحاح ؛ ذلك أنّ المعاجم التي قبله كانت صعبة التناول)) (٣٠) مثلا كتاب العين.

ويذكر الاستاذ أحمد أمين أن معجمات هذا العصر وما بعده قد تضخمت لأسباب منها(٣١):

١. أنّ جامعي اللغة قيدوا في معجماتهم اللهجات، ولم يكتفوا بلهجة واحدة، فإذا نطقت قبيلة بكلمة، ونطقت قبيلة أخرى الكلمة نفسها بلهجة أخرى، فيقيدون ذلك كله، فبعض القبائل يقول: شجرة، والبعض الآخر يقول: شيرة، وهكذا المعجمات مملوءة بهذا الضرب.
٢. أن بعض القبائل كان ينطق بكلمة مقلوبة أو يغيرون في الحروف، فيقولون في: جذب، جبذ(٣٢).
٣. وكذلك من أسباب تضخم المعجم أن الجامعيين الأولين للغة كانوا يجمعون حيثما اتفق، غير منبهين في الغالب على أن هذه الكلمة تستعملها القبيلة الفلانية، وجرى من بعدهم على إثرهم، فبعض القبائل يستعمل كلمة البُر، والبعض الآخر يستعمل كلمة القمح، وبعضهم يستعمل كلمة بُر، وبعضهم يستعمل كلمة قَليب، ومن استعمل كلمة منها لم يستعمل الأخرى، فأتى الجامعون فجمعوا كل ذلك مما كان نتيجته كثرة المترادفات(٣٣)
٤. توسع بعض الأعراب في المجاز، فمثلا: سمّوا الثياب القصار: مقطعات، بل سمّوا كل ما يفصل ويخاط من قميص وجلباب وسراويل: مقطعات.
٥. أنّ بعض جامعي اللغة لم يكن دقيقًا في جمعه، بل كان يدون كل ما سمع سواء كان سمع منه ثقة أم لا، فقد يسمعون قول امرأة قد تكون هازلة أو غير ثقة، أو قول صبية يلعبون، أو قول يلثغ فيدونون ما سمعوه، من ذلك ما روي أن امرأة سئلت: كيف مطركم؟ فقالت: غِثنا ما شئت؛ أي: أنزل الله علينا من الغيث بقدر ما تشاء، ولم يُسمع هذا من غيرها، بل قد عقد اللغويون بحثًا في هل يأخذون اللغة عن المجانين(٣٤).
٦. يقول أحمد أمين: ((وزاد الطين بلة أن بعضهم كان يأخذ اللغة من الصحف فيصحفها، ومن أدلة ذلك مثلاً: أننا نجد في القاموس المحيط كلمة: (بُجْدُق)، كعُصفور: بزرقاطونا ونجدها في لسان العرب بُخدق، وفي المزهر يُحدق، وفي أقرب الموارد يَحذُق، وهكذا كلمات كثيرة)) (٣٥). فكان جامعو اللغة يدونون الأصل والتصحيف معًا، وقد ذكر أحمد أمين أمثلة كثيرة لها(٣٦).
٧. تعرض رجال اللغة المتأخرون لما ليس لهم به علم، ثم يطيلون في الشرح والتفصيل، فيقولون صاحب القاموس مثلا: إنّ الهرمين بناءان أزليان بمصر، بناهما إدريس عليه السلام.
٨. ومما زاد تضخم معجمات اللغة انتقال اللغة من البداوة إلى الحضارة ؛ لذلك تغيرت المعاني، وزيادة بعض الأوصاف على بعض الكلمات، فضلاً عن اتساع المملكة الإسلامية جعلهم يتعرفون أشياء كثيرة لم تكن في حياتهم البدوية، فأدخل اللغويون كل ذلك في معجماتهم، كذلك حروب

التحرير وما صاحبها من تعريب كثير من المسميات(٣٧).

٩. إن معجمات اللغة جمعت كل ما روي، وتأولت الخطأ، وصححت الألفاظ، وأخذت آراء العلماء على اختلافهم من غير تدقيق(٣٨)، ((وأسبغوا على العرب نوعًا من العصمة ليس بصحيح، حتى زعموا أن العربي لا يُطاوعه لسانه في الخطأ ولو تعمد، ورووا لذلك الحكاية المشهورة التي كانت بين سيبويه والكسائي، والحق أن العربي الصميم مثله مثل الانكليزي الصميم أو الفرنسي الصميم، ولو أراد الفرنسي أن يُحور لسانه لينطق بالخطأ عمدًا لاستطاع ذلك في يسر)) (٣٩).

نستنتج من هذا كله ((أنّ اللغة قد تضخمت تضخمًا مزيفًا كثيرًا، وكانت نتيجة ذلك تضخم المعاجم تضخمًا أيضًا مزيفًا، وقد كان يكون هذا مقبولاً لو لم تدهمنا الحضارة الغربية بكثير من المسميات والمعاني، نحتاج معها إلى ألفاظ كثيرة وهي تغمرنا كل يوم بمئات المصطلحات التي كثيرًا ما نعجز عن مسايرتها، فكان المعقول أن نتخفف من كثير من الكلمات ؛ لنفسح مكانًا لها في المعاجم، وقد فعلت قريش خيرًا مما فعله جامعو اللغة العربية ومؤلفو معاجمها، فإنهم وصفوا اللغات المختلفة، ونقوا خيرها واستعملوه لغة لهم، وبها نزل القرآن، فلم يجمعوا كل ما قيل عن القبائل، بل نحلوه واقتصروا على ما حسُن وقعه في أسماعهم، وراق في أذواقهم)) (٤٠).

ويدعو أحمد أمين في النهاية إلى أن ((تستبعد اللثغات، ويحقق التصحيف، وتترك اللهجات، وإذن لا تتضخم هذه المعاجم، وتملأ فراغًا كبيرًا، نحن أحوج إليه في ألوف الأشياء التي ليس لها اسم واحد)) (٤١).

وكذلك دعا إلى ضرورة وضع معجم تاريخي يرجع إليه الخاصة، ويحوي كل تراث العرب إلى جانب معجم تعليمي يرجع إليه المتعلمون، ويقتصر على الكلمات الحية(٤٢). وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة عن هذا المعجم غير أنه لم يتحقق من ذلك شيء كبير، ((وكان من أشهر هذه المحاولات محاولة المستشرق (فيشر) الذي أفاد مجمع اللغة العربية في القاهرة من جزازاته ومادته، فلم يظهر من ذلك إلا عمل ضئيل)) (٤٣). وإن هذا العمل ليس بالسهل، فهو يتطلب معرفة بالعربية ونشأتها، ومعرفة قليل أو كثير عن اللغات القديمة، وشيء عن اللغات غير العربية، وهذا يتطلب جهدًا كبيرًا. وهذا ما ذهب إليه معظم الباحثين المعاصرين من ((أنّ المعجمية العربية كغيرها من الفنون اللغوية العربية تستدعي إعادة النظر في شأنها ؛ لنؤرخ لها ؛ ولنضبط خصائصها ومقاصدها القديمة والحديثة)) (٤٤).

الهوامش

(١) حياتي : أحمد لأمين، مكتبة الأسرة، برعاية سوزان مبارك، ط ٢، ٢٠٠٣، ٢٢٨.

(٢) فجر الإسلام أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٥٩، ٥١.

(٣) لغة الضاد، مقال بعنوان: (الموقف من الجديد اللغوي)، أ.د نعمة رحيم العزاوي، ١٩٩٩، ١٨١.

(٤) ينظر: فجر الإسلام، ٥٢.

(٥) المصدر نفسه : ٤٦ – ٤٧.

(٦) ينظر: أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، منذر الجبوري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ٤٨ – ٤٩.

(٧) فجر الإسلام : ٥٢.

(٨) ينظر: المصدر نفسه، ٥٢ – ٥٥.

(٩) ينظر: المصدر نفسه، ٥٢.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه، ٥٢.

(١١) ينظر: المصدر نفسه، ٥٢.

(١٢) في الأدب الجاهلي : د. طه محسن، دار المعارف بمصر، د.ت، ٨٠.

(١٣) نافع بن الأزرق: هو أحد زعماء الخوارج.

(١٤) ينظر: الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عصام فارس الحرستاني، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ١ / ٤٣٣، وابن عباس رضي الله عنهما : مؤسس علوم العربية، أ.د عبدالكريم بكار، دار الأعلام، الأردن، ط٢، ٢٠٠٢، ٦٢.

(١٥) فجر الإسلام : ٥٢.

(١٦) ينظر: المصدر نفسه، ٥٢.

(١٧) فجر الإسلام : ٥٢ – ٥٣.

(١٨) دراسات في فقه اللغة : صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٧٨، ٦٠.

(١٩) فجر الإسلام : ٥٣.

(٢٠) المصدر نفسه : ٥٣.

(٢١) ينظر: المصدر نفسه، ٥٣.

(٢٢) المصدر نفسه : ٥٣.

(٢٣) ينظر: المصدر نفسه، ٥٣.

(٢٤) المصدر نفسه : ٥٣.

(٢٥) المصدر نفسه : ٥٣ – ٥٤، وينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، شرح وتعليق محمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٧م.

(٢٦) ينظر: فجر الإسلام، ٥٤.

(٢٧) المصدر نفسه : ٥٤.

(٢٨) المصدر نفسه : ٥٤.

(٢٩) لم يعرف العرب التأليف المعجمي بصورة دقيقة قبل العصر العباسي ؛ لأسباب منها، ارتباطه بتطور الحياة العقلية والعلمية، كذلك اتقانهم للغتهم، فهم غير محتاجين إلى معاجم تفهمهم معنى اللفظ، ينظر: المعاجم اللغوية، بداءتها وتطورها، د. إميل يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨١، ٢٤.

(٣٠) ظهر الإسلام : أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٥، ١٩٨٨، ٢ / ٨٥.

(٣١) ينظر: المصدر نفسه، ٢ / ٨٥ – ٨٦.

(٣٢) ينظر: المصدر نفسه، ٢ / ٨٦.

(٣٣) المصدر نفسه: ٢ / ٨٦.

(٣٤) المصدر نفسه: ٢ / ٨٦ – ٨٧.

(٣٥) المصدر نفسه: ٢ / ٨٧.

(٣٦) ينظر: فيض الخاطر، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٦٥، ٩ / ٢٣٤.

(٣٧) ينظر: ظهر الإسلام، ٨٧ – ٨٨.

(٣٨) ينظر: ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١٠، ١٩٦٤، ١ / ٣١٦ – ٣١٧.

(٣٩) المصدر نفسه: ١ / ٣١٧.

(٤٠) فيض الخاطر : ٩ / ٢٣٧.

(٤١) ضحى الإسلام : ١ / ٣١٩.

(٤٢) ينظر: فيض الخاطر، ٣ / ١٢٧.

(٤٣) العربية تواجه العصر: د. إبراهيم السامرائي، الموسوعة الصغيرة، منشورات دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢، ١٣٠، وينظر: الدراسات اللغوية في العراق، د. عبدالجبار جعفر القزاز، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، ١٩٨١، ١٥.

(٤٤) من قضايا المعجم العربي قديمًا وحديثًا : د. محمد رشاد الحمزاوي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ١٩٨٦، ٣٩.